دمشق

في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب

بقلم جورج حداد

« خلاصة المقال المنشور باللغة الانكليزية »

ذكرت مدينة دمشق كثيراً في كتابات مختلف مؤلفي العصر الهلنستي الروماني . وسنقتصر في هذا المقال على ما كتبوه في شرح اسم مدينة دمشق وفي بيان اهميتها مع مقارنة ذلك بما كتبه بعض مؤرخي العرب وجغرافييهم . فقد عثرنا على تفاسير غريبة لاسم دمشق في بعض كتب اليونان . وهذه التفاسير تقوم على احد امرين اولهما تفسير اسم المدينة باسم مؤسسها او باسم احد الأبطال او الآلهة الذين لهم علاقة بها وهذا شائع جداً بين الكتاب الأقدمين وكذلك بين الكتاب العرب . وثانيهما تفسير الاسم عن طريق الاشتقاق من فعل او حادث كما سنرى .

فقد روى ستيفانوس البيزنطي الذي عاش في القرن السادس الميلادي ان اسم مدينة دمشق يرجع الى ان البطل دمشق (دمسكوس) ابن الاله هرمس نزح من اركاديا في بلاد اليونان الى سورية حيث بنى مدينة باسمه . وفي رواية اخرى يقول ان اسم دمسكوس يرجع الى البطل آسكوس الذي ربط الاله ديونيسيوس وطرحه في النهر ولكنه عوقب على عمله بان سلخ جلده وصار يستعمل لحفظ الخمور . وفي رواية ثالثة يقول ان السبب في تسمية دمشق هو ان رجلاً قطع بسكينه شجرة الكرمة التي زرعها الاله ديونيسيوس في سورية ، ولكن ديونيسيوس لحق به وعذبه بان سلخ جلده وجعله زقاً للخمر ومن ذلك اتى اسم « دمسكوس »

ملاحظة : انظر مراجع هذا المقال في هوامش النص الانكليزي في القسم الغربي من المجلة .

وهو مؤلف من كلمتين « دِرما » اي جلد « واسكوس » اي وعاء من جلد ، وفيما بعد سقط حرف الراء فاصبحت « دمسكوس » .

يلاحظ في هذه الروايات وخاصة في الرواية الأولى والثانية ان آلهة الميتولوجيا الاغريقية وابطالها قد نقلت الى سورية واعتبرت مؤسسة لمدينة هامة كدمشق . وان نقل هذه الآلهة على هذا الشكل واطلاق اسمائها على مدينة ليس لها اية صلة بها ليست سوى مظهر من مظاهر انتشار الحضارة اليونانية في بلاد الشرق في زمن خلفاء الاسكندر ، وهي تشبه العملية المماثلة التي بموجبها اطلقت اسماء آلهة يونانية على آلهة الشرق واسماء مدن يونانية ومكدونية على بعض المدن السورية القديمة التي كانت لها اسماؤها المعروفة .

وإذا قارنا عمل بعض كتاب اليونان بشرح اصل اسم مدينة دمشق على هذا الشكل بما فعله بعض المؤلفين العرب فاننا نجد ان هؤلاء لجأوا الى نفس الأسلوب ولكنهم استبدلوا الأسماء اليونانية باسماء سامية . فياقوت الذي عاش في القرن الثالث عشر يورد رواية تقول بان دمشق سميت باسم « دماشق بن قاني بن مالك بن ارفخشد بن سام بن نوح » (يلاحظ ان دمشق قد وردت بشكل « دماشق » في الأصل العبري لسفر التكوين ١٤ : ١٥) . وفي رواية اخرى يقول ياقوت « ان العازر غلام ابراهيم بنى دمشق وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج من النار وكان الغلام يسمى دمشق فسماها باسمه » . وهذه الرواية ايضاً يعطينا اياها ابن عساكر مؤرخ دمشق الذي عاش في القرن الثاني عشر . وقد ورد ذكر العازر هذا في سفر التكوين (١٥ : ٢) باسم أليعازر الدمشقي مالك بيت ابراهيم . على ان ياقوت من جهة اخرى لا يكتفي بنسبة المدن الشرقية العريقة الى اسماء مؤسسين شرقيين بل ينسب بعض المدن التي اسسها المكدونيون مثل انطاكية الى مؤسسين من سلالة سام بن نوح فيقول : « وقيل اول من بناها وسكنها انطاكية بنت الروم بن اليقن بن سام بن نوح » .

اما الرواية الثالثة التي اتى بها ستيفانوس البيزنطي عن اصل دمشق فقد سماها ترومبل (في موسوعة العلوم الكلاسيكية باللغة الالمانية) اسطورة لغوية بطلها شخص يرمز الى مناهضة عبادة الاله ديونيسيوس اله الكرمة . وعلى كل فان حرف الراء في « درمسكوس » يظهر في بعض اسفار التوراة الأخيرة حيث تذكر دمشق بشكل « درمسق » (سفر اخبار الأيام الأول ١٨ : ٥) ولكنها تذكر بشكل « دومسق » واحياناً « دَموسق » في اسفار اخرى .

ثم ان كتاب اليونان يأتون بتفسير آخر لاسم دمشق وهو يتعلق بشخص « دماس » الذي قالوا عنه انه اسم مؤسس المدينة . فقد ذكروا ان دماس رافق الآله ديونيسيوس الى سورية وانه اهداه خيمة (باليونانية Skêné) . فقالوا خيمة دماس (باليونانية Damaskêné) . والشيء الذي يجدر ذكره ان هذه التفاسير اليونانية لاسم دمشق ان كانت عن طريق الاشتقاق او عن طريق اسماء المؤسسين لم يجهلها كتاب العرب وقد رووا تفاسير تماثلها . فقد اتى ابن عساكر في كتاب تاريخ مدينة دمشق بعدد كبير من الروايات المتعلقة باصل اسمها ، ونجد بينها رواية تقول بان « دمشق بناها دمشقش غلام كان مع الاسكندر » . وفي رواية اخرى نجد تفسيراً لغوياً اشتقاقياً يقول فيه : « سمعت أبا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الفرضي ببغداد وكان أسر وبقي ببلاد الروم مدة ان رجلاً من حكماء الروم قال له انما سميت دمشق بالرومية وان اصل اسمها دوومسكس اي مسك مضاعف لطيبها لأن دوو للتضعيف ومسكس هو المسك ثم عربت فقيل دمشق والله أعلم » . ومن جهة اخرى فان ياقوت يعطينا تفسيراً لغوياً لاسم دمشق فيقول : « قيل سميت في ذلك لأنهم دمشقوا في بنائها اي اسرعوا وناقة دمشق اي سريعة » .

اما بشأن اهمية دمشق فقد كان يدرك كتاب العصر الهلنستي الروماني هذه الأهمية الا انهم لم يبالغوا فيها كما فعل كتاب العرب فيما بعد . فالأساطير التي رووها عن اصل تسميتها والتي تشترك فيها الآلهة والأبطال هي من مظاهر تلك الأهمية . وقد ذكر بعض الكتاب علاقة ابراهيم بمدينة دمشق وربما كان مصدر قولهم هذا العهد القديم . ويذكر يوسيفوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي ان في ضواحي دمشق قرية تسمى بيت ابراهيم . ومن جهة اخرى فقد رأينا ان ياقوت يورد رواية تقول : « وفي الأخبار ان ابراهيم ولد في برزة في غوطة دمشق » وقد تكون برزة هي القرية التي عناها يوسيفوس .

على انه بينما نجد كتاب العصر الهلنستي الروماني يقتصرون تقريباً على ذكر ابراهيم في معرض كلامهم عن دمشق فان المؤلفين العرب يكادون لا يتركون نبياً ولا شخصية هامة في التوراة والقرآن الا ويجعلون لها صلة بدمشق . فقد روى ياقوت « ان آدم وحوا وقابيل وهابيل نزلوا في اماكن حول دمشق » كما انه يروي قصة قتل قابيل لهابيل على جبل قاسيون المشرف على دمشق . ومن جهة اخرى يورد رواية بان مكان دمشق كان داراً لنوح ، وان « اول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران » ، وهذه الرواية الأخيرة يوردها بتفصيل اكثر ابن عساكر . كذلك ينقل ياقوت رواية تقول « ان هوداً نزل دمشق

واسس الحائط في قبلي جامعها » ثم يورد ماروي عن النبي انه قال « ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء من شرقي دمشق » ، وهذه الرواية يوردها ايضاً ابن عساكر .

وعلى هذا فاننا نجد ان الكتاب العرب قد اصروا على اهمية دمشق الدينية الأمر الذي لم يذكره كتاب العصر السابق ، وابن عساكر يملأ اكثر من مائة صفحة في رواية الأحاديث المتعلقة باهمية دمشق من الناحية الدينية ويرتب هذه الأحاديث في ابواب منها « باب ان الايمان يكون بالشام عند وقوع الفتن وكون الملاحم العظام » ، ومنها « اختصاص الشام من غيره من البلدان بما ينبسط عليه من اجنحة ملائكة الرحمن » ، ومنها « ان الشام عند وقوع الفتن مقر دار المؤمنين » .

ومن جهة اخرى فاننا نرى ان دمشق قد ذكرت في العهد الجديد وفي كتابات المسيحيين الأولى وخاصة فما يتعلق باقامة بولس الرسول . وازداد ذكرها في الكتب اليونانية المسيحية عندما اصبحت في الدرجة الثانية في بطريركية انطاكية .

وإذا عدنا إلى الكتاب الكلاسيكيين فاننا نجد انه مع عدم اهتمامهم بدمشق من الناحية الدينية يذكرون لها بعض النواحي الأخرى . وهنالك روايتان عن اهميتها العامة . فالأولى أتى بها الجغرافي سترابون الذي عاش في القرن الأول ق . م حيث يقول : « لا تزال دمشق حتى اليوم على جانب عظيم من الأهمية ، وفي زمن الحكم الفارسي كان يمكن اعتبارها اشهر مدينة في هذا القسم من آسية » ، واما الرواية الثانية فهي ما قاله الامبراطور يوليانوس في القرن الرابع الميلادي إذ سماها « عين الشرق كله » . وهنالك كتاب آخرون ذكروا اموراً معينة منهم فوسيدونيوس الأفامي في القرن الثاني ق . م الذي تكلم عن خمرها الشبيه بخمر حلبون (وكان يؤتى بخمر حلبون النفيس إلى مائدة ملك الفرس في سوزا) . ويتكلم بلينيوس عن خصب ضواحي دمشق وعن خوخها الممتاز . كذلك يذكر كتاب آخرون مثل آميانوس في القرن الرابع وملالاس في القرن السادس اهميتها السياسية والعسكرية وخاصة في عهد ديوكليشيان عندما اسست فيها معامل للاسلحة ومستودعات للوازم الحربية . وهنالك كتاب ومؤرخون مثل يوسيفوس وديودورس الصقلي ، وفلوطرخوس وغيرهم يذكرون حوادث من تاريخها ولكن يقتصرون على العصر السلوقي والروماني ، فيما سوى يوسيفوس الذي يعود إلى العصر الآرامي وينقل كثيراً من معلوماته عن العهد القديم في التوراة .

على ان العبارات التي تحتويها كتابات العصر الهلنستي الروماني عن مميزات دمشق وخصبها

وموقعها قليلة بالنسبة لما ذكره كتاب العرب ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لما بلغته دمشق بعد الفتوحات الاسلامية وخاصة في عهد الدولة الأموية . فقد أشاد ابن عساكر وياقوت بذكرها واختص ابن عساكر برواية الاحاديث النبوية عنها فروى عن رسول الله أن « أربع مدائن من مدائن الجنة وأربع مدائن من مدائن النار . فاما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق واما مدائن النار القسطنطينية وطبرية (وفي رواية أخرى رومة) وانطاكية وصنعاء » . ومن الاحاديث ان « الخير عشرة أعشار تسعة بالشام وواحد بسائر البلدان » . ومنها « ان الشام صفوة الله من بلاده اليها يجتبي صفوته من عباده فمن خرج من الشام الى غيرها فبسخطة ومن دخلها من غيرها فبرحمة » .

ويوجز لنا ياقوت اسباب أهمية دمشق فيقول : « هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه ، ووجود مآرب » ثم يجمل كلامه عن دمشق فيقول : « وجملة الأمر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله ، ومن المحال ان يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها الا وهو فيها أوجد من جميع البلاد » . ويذكرنا كلام ياقوت هذا بكلام ليبانيوس الانطاكي الذي امتدح مدينته في القرن الرابع في خطبته الحادية عشرة المشهورة بالرغم ان ياقوت لم يكن قصده كتابة مقال في امتداح دمشق بل اقتصر على تدوين ما اتصل به من أمرها في صفحات قليلة من معجمه .

والخلاصة انه وردت قصص وتفاسير غريبة لاسم دمشق في كتابات العصر الهلنستي الروماني وفي المؤلفات العربية ، وذكرت شخصيات هامة ذات علاقة بدمشق ، كما ذكرت أهمية دمشق بوجه الاجمال من قبل كتاب العربية واليونانية في العصور الاسلامية وفي العصور التي سبقتها ، غير ان ما ذكره كتاب العصور التي سبقت الاسلام كان أقل بكثير مما ذكره كتاب العصور الاسلامية وكان يحمل – خاصة في تفسير اسم دمشق – أثر عملية التمازج بين الحضارة اليونانية والحضارة الشرقية في بلاد غربي آسية ، وهذا الأثر لم تخل منه بعض تفاسير الكتاب العرب أنفسهم .